شكر وعرفان

لقد ساعدنا أناس كثر في هذا المشروع، بعضهم بالكلمة المناسبة، وآخرون بحضورهم ودعمهم الدائمين. ويجب علينا أن نشكر شكراً خاصاً أفرام أودوفيتش ومارك كوهين، اللذين شجعاني على استخدام الجنيزا Geniza وكانا بين أولئك الذين قرأوا أو علقوا على مخطوطي. وكذلك أوجه شكري إلى دافيد أبو العافية Abulafia وجوردان بيركي Berkey، وتوماس كليك Glick ومارتا هويل ووليم جوردان. ودافيد لوستكوم، ودافيد نيرنبرج وتيوفيلورونير، وآمي سينجر وكريستوفر تايلور الذين بنصحهم وخبرتهم واقتراحاتهم ذات الحس الجيد أنقذوني من كثير من المآزق.

ويتوجب علي شكر آخرين كثيرين لأفكارهم المعرفية الواسعة، وضيافتهم وتشجيعهم وصداقتهم، من هؤلاء مرجريت الكسندر، كاترين باجليتو، درك ودورتي بيل، محمد بن عبود، كورين بلاك، جون بوسويل، روبير بورنز، كارولين بينوم، منيرة شابوتو، بيل ولين كورتني، هث ديلاد، ايليزابت، محمد الخطيب، مرسيدس جارسيا ـ ارنيال، ادواردو كرندي، فرانسيسكو هرناندز، كارولين بينوم، منيرة شابوتو، بيل ولين كورتني، جوناتن كاتز، هلماوسن كرويلر، برنارد لويس، فيكتوريا لورد، دافيد نيقول، كاترين اوتن ـ فروكس، فيم فيليبس، فيتو بيرجيوفاني، وجيو بيستاريوني، وجون بريور وأدلين روكوا، روبير سومرفيل، فيم سميت، آلان ستاهل، ومحمد طالبي، جواكين فالفي، دافيد فاسرشتاين. وأوجه شكري الخاص

أيضاً، إلى وليم دافييس وآن ريكس في مطبعة جامعة كمبردج وإلى إليزا ماك لينين التي رسمت خرائط هذا الكتاب.

كما أوجه شكري إلى المكتبة والمحفوظات (الأرشيف) حيث عملت، وإلى أولئك الموظفين الذين ساعدوني في بحثي. وذلك في جنوا حيث محفوظات A.S.G.S. وفي تونس (المكتبة الوطنية)، وفي مدريد MRAH وCSIC، ومكتبة الاسكوريال، والمكتبة الوطنية، والمعهد الاسباني العربي IHA. وفي الرباط المكتبة الوطنية، وفي الولايات المتحدة، مكتبة جامعة برنكتون وبيل وفيسكنسين وماديسون وكذلك مختبر أبحاث جامعة برنكتون. وجمعية النميات في نيويورك.

وأنا مقر بالجميل من أجل الدعم المالي الكريم من قبل جامعة برنكتون ومجلس البحث وكلية تطوير العلوم الاجتماعية في جامعة كولومبيا. وصندوق فولبرايت هايس ومجلس البحث العلمي الاجتماعي، وصندوق جوزيفين دو كارمان وصندوق السيد جيلز وايتينج.

أخيراً، حبي الخاص وشكري إلى جيلز وماتيو.

المختصرات

تدل النجمية على مجموعة مخطوطات جينيزا Geniza المذكورة وفقاً للترتيب الانموذجي المستخدم من قبل جوتين Goitein وآخرين. وتدل علامة الرف على مجموعتها وأحياناً على قياسها والمجلد والورقة. وهكذا فإن الوثيقة المذكورة بالأحرف والأرقام TS 10J12.7 هي من مجموعة: Tayler - Schechter في مكتبة جامعة كمبردج في انجلترا. وهي الورقة السابعة في الكتاب أو المجلد الحادي عشر من سلاسل المجلدات بطول 10 انش. TS مخطوطات محفوظة في الزجاج هي متسلسلة بصورة مختلفة (TS12.51 تدل على الرقم 251 من السلاسل الزجاجية بطول أحد عشر إنشاً)،

وتستخدم كل مجموعة ترتيباً مختلفاً لعلامات الرف بالنسبة لمخطوطات جينيزا. من أجل مزيد من الشرح والوصف انظر:

S.D Goitein. A Mediterranean Society. [Berkeley, 1967 - 88]. I, PP XIX - XXVI.

كلمة الناشر

الصدق والحياد، قدر المستطاع، والمتانة والعمق في المعرفة والمنهج.. كانت هذه من أولى صفات مؤرخي العرب زمن نهضتهم وتجليها في دمشق وبغداد والقاهرة والمغرب والأندلس. وكان البحث هاجس الأمة بأسرها. والبحث العلمي يؤدي إلى التفتح والتوسع في العقل وفي الزمان والمكان. وعندما يتوقف البحث العلمي، يضمر ويتقهقر ما تقدم.

إن الباحثة الشابة اللامعة ـ بشهادة أساتذتها ومن عرفها من البحاثة تمتلك تلك الصفات، أوليڤيا ريمي كونستبل؛ من وراء المحيط، جاءت لتبحث في ماضي الأندلس وتعطينا درساً يذكرنا برواد الحقيقة والمعرفة في عصر النهضة العربية في الأنْدلس، وفوق ذلك، فإن علم التاريخ الحديث قد أصبح أكثر رسوخاً وتشعباً وانتشاراً بين الناس. ولذا فإن المهمة صعبة وعويصة. إن قراءة كتاب كونستبل عن التجارة والتجار في الأندلس، تذكرنا بالأمجاد.. ولكنها تشدنا وتمنعنا من الغرق في النرجسية، والذاتية الإنسانية السلبية، وتعلمنا الصبر في الفهم والتروي في اطلاق المشاعر المجانية.

كيف وصل العرب إلى الاندلس، إحدى أهم بقاع أوروبا الغربية؟ وماذا فعلوا هناك خلال ما يزيد على خمس مئة سنة؟ ولماذا خرجوا منها وزالت سيادتهم ولغتهم؟

على الرغم من أن كتاب كونستبل ـ وهو الذي أعطاها درجة الدكتوراه العلمية ـ يبحث في التجارة، لا يتوقع القارئ أن يجد فيه أجوبة على مثل تلك الأسئلة الكبيرة. ولكن، كلنا يعلم أن التجارة تزدهر من وراء الفائض

والاقتصاد الناجح، والأنظمة الحرة المفتوحة. ونعلم أن الاستهلاك والعوائد خير دليل على معرفة الفرد.

وهكذا أعطتنا الباحثة صورة تطور الحياة الاقتصادية، وانعكاساتها السياسية، لا العكس. وبتنا نعلم أن غياب وحدة مصالح العرب المسلمين، ونمو مصالح الأوروبيين، رغم فرقتهم السياسية، قد أدت إلى انهيار سيطرة المسلمين على تجارة عالم العصور الوسطى واقتصاده. ولكن كيف حدث ذلك؟ إن كونستبل تخرجه من وثائق التجار والمؤسسات التجارية آنذاك، وتقدمه لنا في نطاق هذا الكتاب.

مقدمة المعرِّب

كما أدارت اسبانيا (قشتالة) المسيحية ظهرها إلى البحر الأبيض المتوسط لتلتفت إلى الأطلنطي وشمال أوروبا، كذلك فإن مصر المسلمة قد أدارت ظهرها إلى البحر نفسه لتلتفت بعيداً إلى الجنوب والشرق. وتحول المتوسط شيئاً فشيئاً إلى بحيرة أوروبية شمالية مسيحية.. يمتطي فيه المسلمون وبضائعهم مراكب خصومهم؟

كيف نصل إلى الأسباب الحقيقية لانحسار العرب عن اسبانيا الأندلس، وتقدم الاسبان من سكان قشتالة وكتالونيا؟

ـ ما هي الأسباب الحقيقية لتقهقر الحاكم المسلم وتقدم الحاكم المسيحي الأوروبي؟

كيف تحول التفوق العلمي والفكري إلى الخصم؟ ما دور التجارة والتجار في ذلك؟ هل كان الحاكم أم الأفراد أم التجار وراء ذلك التحول؟

لم يظهر حتى الآن كتاب يبحث في تاريخ العرب المسلمين ويستخدم جميع الوثائق التجارية في مصر وجنوا وپيزا والمصادر التقليدية العربية كما هي الحال في هذا الكتاب. ولعل السمعة العلمية لمؤلفة الكتاب في جامعات الولايات المتحدة، تجعل منه أول عمل تاريخي يفصح عن الأسباب الحقيقية لنهاية تاريخ العرب في الأندلس، لا بل بداية نهايتهم في عالم قوي «العالم الحديث». ترى هل نستفيد ويستفيد إنساننا العربي وحاكمه بالذات من تجربة الأندلس؟

إن الأستاذة الدكتورة اوليفيا ريمي كونستبل تستحق كل الإعجاب والتقدير لحياديتها وعلميتها، وتقديمها الأطراف المتنازعة المسلمة والمسيحية واليهودية، في ذلك الوقت، وعلى المستوى التجاري والسياسي بصورة تاريخية علمية جامعية تفيد الباحث والطالب والحاكم والتاجر و«القائد الاستراتيجي».

إن هذا الكتاب درس في البحث والمنهج، ودرس يجب أن نتعلم منه لبناء علاقات أكثر وعياً مع الماضي وبالتالي مع الحاضر ومع المستقبل.

أ.د. فيصل عبد الله

ملاحظات قبل القراءة

أوردنا قائمة المراجع والمصادر كما هي لسهولة العودة إليها من قبل الباحثين، ويمكن قراءة أسماء الكتب العربية، معربة، عند استخدامها وذكرها في حواشي الكتاب، ويمكن الاستعانة بالدليل العام للأسماء للحصول على أرقام الصفحات التي ورد فيها اسم المرجع العربي أو أي اسم آخر بالعربية أولاً وما يقابله بالإنكليزية واللاتينية ثانياً.

ـ تحاشينا الأقواس والحواصر واكتفينا بالفاصلة للمرجع والنقطة.. إلخ.. وهذا ما يدرج عليه البحاثة اليوم.

ـ حافظنا على نطق الاسماء باللاتينية والانجليزية عند نقلها إلى العربية مع الاحتفاظ باللفظ العربي التقليدي إن وجد.

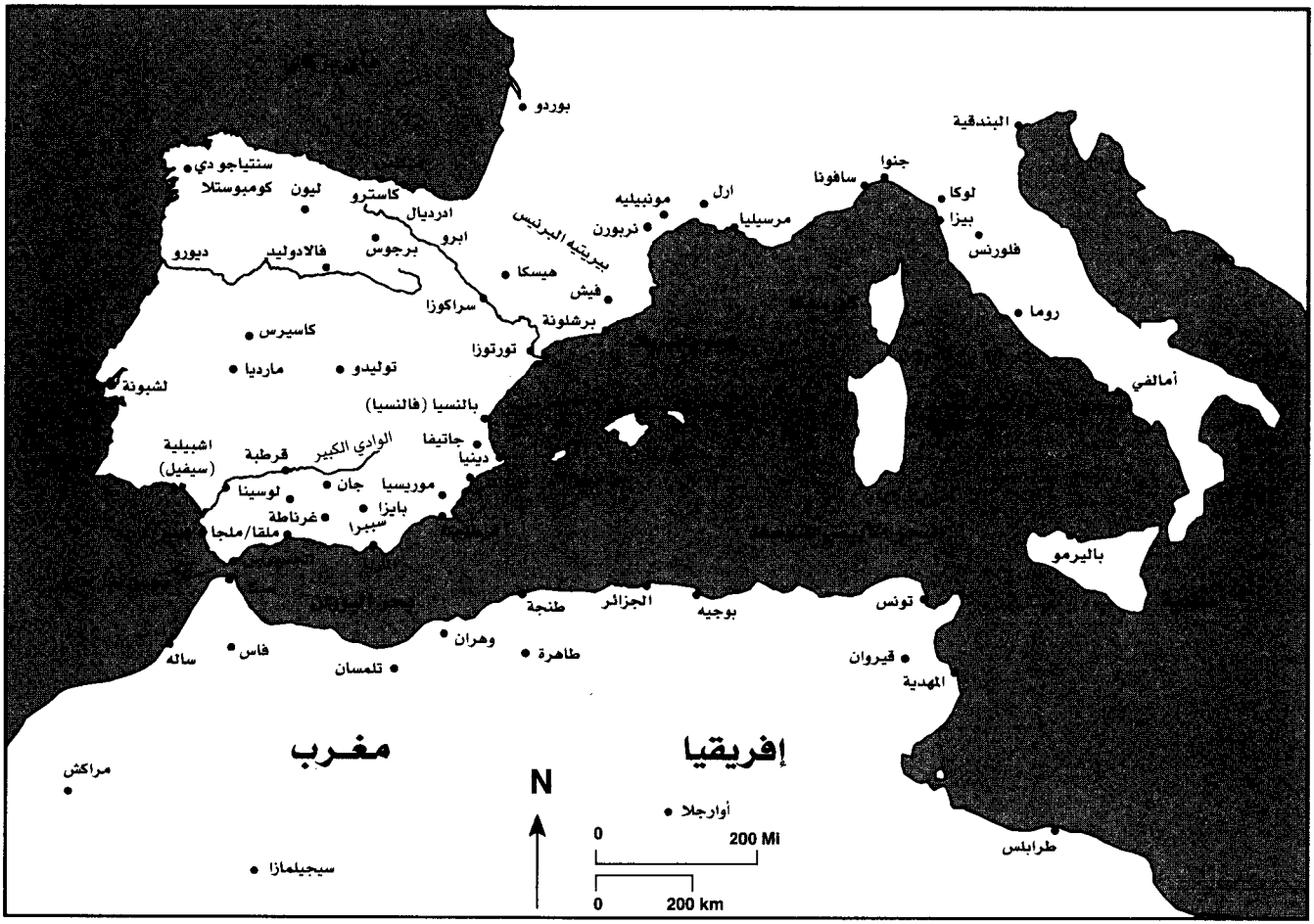
بوردو
البندقية
جنوا
سافونا
لوكا
بيزا
فلورنس
روما
أمالفي
سنتياجو دي
كومبوستلا
ليون
كاسترو
ادريال
ابرو
برجوس
ديورو
فالادوليد
مونبيليه
ارل
نربورن
مرسيليا
بيرينيه البرنيس
هيسكا
فيش
برشلونة
سراكوزا
كاسيرس
تورتوزا
ماردیا
توليدو
لشبونة
بالنسيا (فالنسيا)
جاتيفا
دينيا
اشبيلية
(سيفيل)
قرطبة
الوادي الكبير
موريسيا
جان
لوسينا
بايزا
غرناطة
سبيرا
ملقا/ملجا
بالیرمو
تونس
الجزائر
بوجيه
طنجة
وهران
طاهرة
قيروان
المهدية
سالة
فاس
تلمسان
مراكش
سيجيلمازا
أوارجلا
طرابلس
مغرب
إفريقيا
N
0
200 Mi
0
200 km

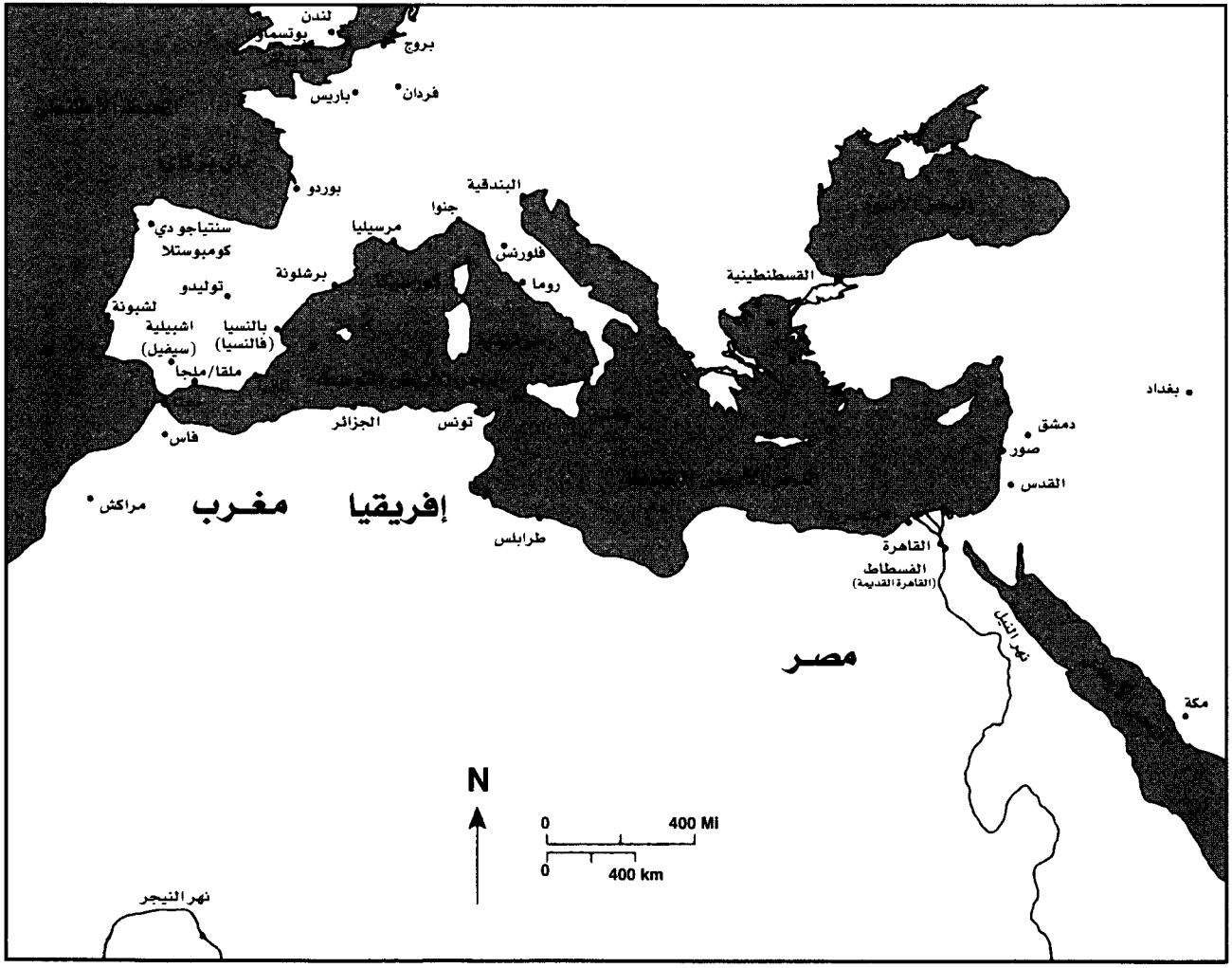
لندن
بوتسماوث
بروج
باريس
فردان
بوردو
البندقية
جنوا
مرسيليا
سنتياجو دي كومبوستلا
فلورنس
روما
برشلونة
توليدو
لشبونة
بالنسيا (فالنسيا)
اشبيلية (سيفيل)
ملقا/ملجا
القسطنطينية
بغداد
دمشق
صور
القدس
الجزائر
تونس
فاس
مراكش
إفريقيا
مغرب
طرابلس
القاهرة
الفسطاط (القاهرة القديمة)
نهر النيل
مصر
مكة
N
0
400 Mi
0
400 km
نهر النيجر

المقدمة

إن إعادة دراسة وتركيب أنماط التجارة الدولية لمسلمي إسبانيا في (الأندلس) لهو مثل مَنْ يحاول ترقيع وجمع لغز منشار متهزهز لرسمٍ أو تصحيح مجهول، حيث فقد كثيراً من القطع، كما أن بعض القطع المتيسرة هي الأخرى مستعارة من ألغاز مشابهة على ما يبدو. ولا يوجد مصادر أولية تعالج موضوع تجارة الأندلس على وجه الخصوص ولا يقدم سوى القليل منها حفنة من المراجع الصالحة. إنَّ هذا الشُّحَّ في المصادر قد جعل من الضروري اللجوء إلى معلومات من نوعيات واسعة من المواد. إنه لمن الممكن رؤية طيف الطرقات والتجار والبضائع في تجارة الأندلس فقط من خلال ضم أو جمع كثير من المصادر التي تحتوي على فجوات.

ويوجد بين المصادر العربية أعمال جغرافية ورحلات ومواد حقيقية ومعاجم السير الشخصية (التراجم)، وقَدَّمَتْ جميعُها معلومات كاملة ومفيدة، بالإضافة إلى معلومات داعمة أُضيفت من خلال حوليات وأشعار وبحوث أو رسائل محترفة. لقد قدم جغرافيو العصور الوسطى ورحالتها أوصافاً دقيقة لمدن الأندلس وصادراتها، بما في ذلك تقارير تصف طرق التجارة ومناطق الإنتاج.

وقد أثبتت كتبهم نفاسة هذه الدراسة وقيمتها، رغم تنوعها دقةً وأصالةً. وكان بعض الكتاب بما فيهم ابن حوقل وابن جبير وبنجامن التودلي Benjamin of Tudela قد عاشوا، في الواقع، في الأماكن التي وصفوها في أعمالهم. بالمقابل بقي كثير من المؤلفين خلف مكاتبهم يقتبسون من الكتب

العتيقة أو يسجلون ذكريات الرحالة المعاصرين.

إن هؤلاء الجغرافيين الثانويين ليسوا بالضرورة أقل دقة من نظرائهم الأكثر حيوية، ولكنهم يميلون أن يكونوا أقل جدة أو عصرية. وعندما يَدْمُجُ كاتبٌ ما المعلومات المستقاةَ من عهود مختلفة ـ كما هي حال الإدريسي الذي كتب في وسط القرن الحادي عشر إذ أدخل موادّ أقدم في عمله ـ نستنتج أن بعض هذه المعلومات يؤرخ في زمن الكتابة. لقد قبلت، من قريب أو بعيد، المعلومات المقدمة من الجغرافيين ما لم تكن غير دقيقة تماماً أو أنها ثانوية بالكامل، وقد أرختها في زمن كتابتها.

وتقدم المواد النظامية تعقيدات مختلفة، خاصة وأن كتب القانون الإسلامي وصيغ الكتيبات الخاصة بتسطير العقود (الوثائق)، وكتيبات تعليمات وإرشاد مفتشي السوق (كتب الحسبة) تميل إلى أن تكون وصفية.

وعلى الرغم من ذلك، فإنها تتضمن كثيراً من التفاصيل النفيسة التي تعكس ممارسة تجارية. كما نستفيد من مجموعة الأحكام القضائية (الفتاوى) المتعلقة بأسئلة أو شكوك شرعية، مع إجاباتها المنسوبة إلى عالم شرعي خاص (وهكذا نستدل على الزمن ومكان صدور الفتوى). وتبدو كثير من الفتاوى وقد سجلت مواقف تجارية حقيقة وخصومات التجار. كما أن وصف معاجم السيِّر الشخصية ورحلات العلماء المسلمين هي أيضاً ذات فائدة، ذلك أنها تذكرُ العلماءَ الذين كانوا تجاراً. وربما، لم يكن هؤلاء العلماء التجار ممثلين للتجار المسلمين، ولكنهم كانوا، في الواقع، التجار المسلمين الوحيدين الذين نملك عنهم معلومات شخصية.

لقد كانت الوثائق العربية اليهودية في مجموعة جينيزا في القاهرة من أهم الوثائق لهذه الدراسة. إن هذه المواد المخبأة تضم آلاف الرسائل من العصر الوسيط وأوراق أخرى، وقد حُفظت في غرفة مختومة من كنيس في القاهرة القديمة، حيث كانت قد اكتشفت في أواخر القرن التاسع عشر. وكانت قد كتبت بالعربية باستعمال الحروف العبرية، وتخص كثيراً من رسائل

الجينيزا (أعمال تجار يهود)، الذين كانوا يتعاطون التجارة من مصر وإليها خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وتضم مئتين ونيف منها مرجعيات عن الأندلسيين وبضائعهم والترحال إلى موانىء الأندلس. كذلك فإن الجينيزا تضم فتاوى أو إجابات عبرية، وتسجل المحكمة اليهودية مشهد التجار اليهود الأندلسيين وشركائهم وقد انخرطوا في دعاوى قضائية متشابهة في تفاصيلها مع فتاوى المسلمين. ولكن يبقى هناك بعض الأسئلة التي تتعلق بدرجة تمثيل وثائق جينيزا أشكال التجارة العامة في البحر الأبيض المتوسط المعاصر أو أنها تمثل، على الأقل، أشكال التجارة اليهودية.

أخيراً، إن هذه الوثائق تقدم معلومات عن حركة التجار اليهود وبضائعهم مِنْ موانىء الأندلس وإليها، ولقد أُذِنتُ بالوصول إلى وثائق الجينيزا عامة المنشور منها والمترجم، وفضلاً عن ذلك حصلت على ملاحظات غير منشورة، ومنسوخات، وصور وأفلام صغيرة الحجم (مايكرو فيلم) مهداة إلى جامعة برنكتون من قبل س.د. جوتاين S.D. Goitein الذي بيّنت أعماله الرائدة قيمة هذا المصدر الوثائقي.

لقد ملأت الوثائق اللاتينية وكذلك العامية اللغة صورة الأندلس على صعيد الاتصال التجاري مع إسبانيا المسلمة ومع مناطق أخرى من أوروبا. وضمت صكوكاً fueros من قشتالة وأراجون والبرتغال فيها قوائم الأسعار التي تبين أنواع البضائع (الأندلسية وغيرها) التي تُوجِرَ بها في أسواق الشمال.

ويوجد بالمتناول قوائم مشابهة للرسوم أو المكوس التجارية من المدن والريف الايطالي، ومن موانىء شمال أوروبا، وكذلك سجلات الصكوك ـ الكمبيالات.. وهي ذات قيمة أيضاً إذ إنها تسجل عقود التجار الجوالين في الموانىء الايبرية أو مبيعات البضائع الأندلسية. وإن أقدم السجلات الباقية تؤرخ قبل سنة 1150م وهي محفوظة في محفوظات الدولة في جنوا، وفي عقود متوافرة في مرسيليا في وقت لاحق، وفي سافونا Savona وفي فيشي Vich وفي مدن أخرى. كما تقدم الحوليات المسيحية والمراسيم الملكية

والقضائية، والوثائق الدبلوماسية وسجلات الهبات الكنسية، والأدب الدنيوي، غير الديني، معلومات عن أنشطة التجارة الأندلسية.

من جهة أخرى فإن البراهين المادية من ميدان التنقيب الأثري كتاريخ الفن، والنميات قدمت مفاتيح لحل ألغاز التجارة الأندلسية الدولية والعقود الاقتصادية. ومثال ذلك الـ بيزا باتشيني (قطع السيراميك أو الفخار التي استخدمت في الزينة المعمارية) تظهر انتشار الفخاريات الأندلسية والاسبانية المسيحية في ايطاليا اعتباراً من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر. إن طبيعة موادها تفترض، وبصورة واضحة، أن هذه المواد قد وصلت إلى إيطاليا من خلال التجارة. وبالعكس، فإن الانتشار الواسع للعملة الأندلسية، ربما كان حصيلة الاحتكاك الاقتصادي والتجاري أو من خلال بعض طرق التمويل.

إنه لمن الصعب تثمين واستخدام هذه القطع المتفرقة من المعلومات، فمن جهة يمكن أن نبرهن أن النقص النسبي في المعلومات المتعلقة بتجارة الأندلس تدل على أن التبادل التجاري لم يكن مهماً ولا واسع الانتشار، وهذا ما أعتقده شخصياً، من جهة أخرى ـ وعلى الرغم من استحالة إحصاء عدد التُّجار بدقة، أو تقدير حجم وقيمة الحمولات، أو تواتر الرحلات التجارية في أية سنة ـ من المستحسن الوصول إلى الهدف عن طريق تفحص هذا التنوع في الوثائق. إن القليل من المراجع عن التجارة، وإنْ كانت مبعثرة، قد تعكس لنا حقيقة واسعة. فهناك القليل من المصادر المادية التي تتحدث عن التجارة بين مسلمي إسبانيا (الأندلس) وبيزا، في الوقت الراهن، ومع ذلك فقد ثَبُتَ وجودها من خلال معلومات باقية ولكنها متنوعة ومتقطعة. فهناك أسعار مجدولة في بيزا منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر تسجل جباية الضريبة من المراكب الواصلة من موانىء الأندلس، وهناك وثائق دبلوماسية معاصرة محررة بين أمراء الموحدين وبيزا تتعلق بأعمال تجارية. ويسجل مؤرخو الحوليات من جهة أخرى، حملة بيزا البحرية في مياه الأندلس، عندما حاول بيتشيني البيزاويون بصمت نقل الفخار بين اسبانيا

وإيطاليا علماً أنه لا توجد عقود موثقة تذكر الحملات التجارية لپيزا الموجهة إلى موانىء الأندلس، ولكن ربما نستطيع هنا استنتاج بعض الحقائق من خلال معلومات الاتفاقات أو العقود الموثقة للجنويين. ذلك أن لمدينتي جنوا وپيزا تطلعات تجارية مشتركة (وهو ما خلق التنافس بين المدينتين) ولأنَّ المدونات الجنوية مشابهة لتلك المذكورة أعلاه لمدينة پيزا فمن المحتمل أن تجار پيزا قد ألفوا شراكات وقاموا برحلات مشابهة تماماً لما نراه في عقود أو اتفاقات الجنويين.

ومن خلال فحص شبكة الطرق التجارية في الموانىء الإيبرية وإليها، وفحص مختلف نوعيات التجار، وتنوع البضائع المصدرة من شبه الجزيرة الإيبرية، فإنه من الممكن إعادة بناء مواصفات التجارة الدولية، حتى ولو كان متعذراً تقدير حجمها في أي دور أو عهد. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه المعلومات المرقعة يجب أن تنمي لدينا شعوراً تخمينياً يتعلق بالتبديلات في حجم التجارة بين العهود. كذلك فإن نقص البراهين لا يثبت بالضرورة عدم وجود شيء ما، فالهبوط الحاد أو الارتفاع الفجائي لمادة ما، ربما يكون اشارة لتبدل حقيقي وهذا صحيح بصورة خاصة في حالات نعثر فيها على برهان خارجي يدعم تنوعاً ملحوظاً في المعلومات. إن نقص سجلات جينيزا بعد أواسط القرن الثاني عشر مثلاً، يخلق انطباعاً بانحسار نشاط اليهود في تجارة الأندلس. وإنه لمن الصعب قبول هذا البرهان وحده كمؤشر لظاهرة حقيقية دون اعتبارات الاضطهاد المعاصر لليهود في الأندلس والظهور المتزامن للتجار الايطاليين في تجارة الأندلس. وبطريقة مماثلة عندما تتضاءل المصادر التي توثق تجارة الأندلس مع الموانىء الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، فربما يعكس هذا تغيراً حقيقياً في التجارة حيث تظهر فجأة وبنفس الزمن كمية من المعلومات التي تعرض حركة مرور بين شبه الجزيرة الإيبرية وأوروبا.

إن هذا الكتاب يختص بالتجارة الدولية أولاً، وليس بالاقتصاد الأندلسي الداخلي. وإلى حد ما، فإن التمييز بين التجارة الدولية والاقتصاد الداخلي

هو أمر مصطنع، ذلك أن الأولى هي امتداد للأخير، وتتعلق في كثير من الوجوه بالأسواق المحلية وبالإنتاج الاقليمي. وتبقى التجارة الدولية تخصصاً مستقلاً حيث تدرَّب فيها متخصصوها. ومن ناحية ثانية فإن التجار الذين مارسوا هذه التجارة قد اختصوا بشراء وبيع البضائع لمسافات أطول من المستوى المحلي. وربما تعتبر التجارة الدولية باستقلالها أداة احتكاك بين الاقتصاد الأندلسي الداخلي والمجال الأُوروبي المتوسطي العريض.

إن تعابير مثل، المسافة الطويلة، والدولي والثقافة المزيجة، تحمل معانيها الخاصة وتداعياتها. ومن أجل أغراض هذه الدراسة، فإن تجارة المسافة الطويلة هي تعبير عام إلى أبعد حد، حيث إنه استعمل للدلالة على جميع الأنشطة التجارية المعنية سواء أكانت بين المدن الإيبرية فقط، حيث يفصل الواحدة عن الأخرى مسيرة أيام قليلة أم بين الأندلس والشرق الأدنى. لقد استعمل تعبير التجارة الدولية للدلالة على التجارة الأندلسية الخارجية مع أوروبا وباقي مناطق العالم الإسلامي (دار الإسلام). ذلك لأن الحدود في العصر الوسيط، لم تكن مفهومة كما هي الحال بالنسبة للحدود القومية المعاصرة، ولم يستعمل تعبير الدولي هنا للدلالة على التجارة بين المناطق الواقعة تحت أنظمة سياسية مختلفة، كالتي بين مملكتين داخل شبه الجزيرة وحسب، بل استعمل أيضاً للدلالة على التجارة بين المناطق الجغرافية التقليدية كتلك، في شبه جزيرة إيبريا، وشرق أفريقيا ومصر وأوروبا.

أما الثقافة المزيجة فقد استعملت للدلالة على التجارة المتقاطعة مع جهات متعددة اللغات والديانات والميراث الثقافي والعرقي[1]. فقد كانت تجارة الأندلس ذات ثقافة مزيجة لأن حركة مرورها وصلت إلى شمال إسبانيا وأوروبا أو بيزنطا. بالمقابل فقد كانت التجارة مع المناطق الأخرى من العالم الإسلامي ذات مسافات طويلة ولكن دون ثقافة مزيجة.

---

(1) هذا مشابه للتعريف الذي عرضه كورتين في P. Curtin in Cross - Cultural Trade in World History (Cambridge, 1984).

هذا ويطرح التنوع في شبه الجزيرة الإيبرية بميراثها المتعدد الديانات والثقافات واللغات، مصاعب تعبيرية، تبدأ مع اسم إسبانيا بالذات حيث استعمل هنا ليعني شبه الجزيرة الإيبرية بالكامل وذلك لأسباب التبسيط والملاءمة، إلا إذا لم يعدل بالمسيحية أو الإسلامية ومع ذلك فإن التعبير المفضل للدلالة على إسبانيا المسلمة هو التعبير الغربي الأندلسي - al Andalus. وقد استعمل التعبير: الأندلس Al - Andalus مقابل أندلسيا Andalusi (جنوب قشتالة Castile في أواخر العصور الوسطى). وأندلسي Andalusi يختص بالأندلس Andalus مقابل أندلسياً Andalusian (ويختص بأندلوسيا). وقد اسُتعمل عدد من الأسماء الجغرافية التقليدية مثل أوروبا والشرق الأدنى وعالم البحر الأبيض المتوسط والعالم الإسلامي على الرغم من أن معالم حدودها مبهمة ومتقلبة، ومع ذلك، وحيثما استطعت، فقد فضلت الأسماء الدقيقة المعنية مثل قشتالة Castile وأراجون Aragon، وبرتغال Portugal وغرناطة Granada.

وهناك تعابير أخرى تطرح مشكلات، وبصورة خاصة عندما انتشرت الأسماء التعريفية الدينية والعرقية لتطلق على الكيانات الجغرافية والسياسية. فالعالم الإسلامي، مثلاً، شمل جميع الديانات تحت إدارة العواهل المسلمين على الرغم من أن المسيحيين واليهود عاشوا داخل حدوده، وبصورة مماثلة فإن التجارة الإسلامية تعني عامة تلك التجارة التي نُقلتْ خارجاً من قبل المسلمين. ونقيض ذلك وجود تجارة في العالم الإسلامي (حيث لها مشاركون كثيرون)، من جهة أخرى، تعني التجارة العربية تلك التجارة بين العرب أنفسهم حيث أن التجارة العربية تدار بالعربية (وهذا يشمل كثيراً من غير العرب وغير المسلمين) وقياساً على ذلك توجد مشاكل متشابهة مع التعابير المسيحية واللاتينية. وغالباً، من المستحيل أن يَثبُت المرء دائماً على استخدام أسماء الأماكن والأشخاص، ولكن حيثما وُجد شكل تعبيري انجليزي فقد اخترته نظراً لسهولة استعماله. ومن ثم إنني أفضل Castile على Castilla (قشتالة)، وأفضل القاهرة القديمة أو فسطاط (Fustat) على Fustāt،

والمريا Almeria على Almería وal - Mariyya. وعلى الرغم من هذه القاعدة العامة، فقد استعملت بعض الأسماء بلغتها الأصلية بقصد التخصيص أو التنويع. من جهة أخرى، هناك بعض الأسماء التي حولت إلى الانجليزية عندما توافر المعادل المشترك لها. وقد أصبح اسم العواهل الإيبريين جيمس James وهذا لاستبعاد الخلط بـ جيم/جوم Jaime/Jaume. ونجد بيتر Peter وفرديناند Ferdinand، ولكن الفونسو Alfonso استبقى لفظه القشتالي.

كما أن الأسماء الأولى اللاتينية قد جُعلت انجليزية بصورة عامة. ولكن ليس دائماً. أما الأسماء العربية فمشكلتها مختلفة وبسيطة، وقد احتفظنا بالهجاء الأصلي تبعاً لنظام نقل قراءتها المنشور في:

International Journal of Middle East Studies

وهكذا فقد استعملتُ الاسم محمد Muhammad (وليس مُحمِد Mohammed)، وعلي Ali، وهكذا.. أما الأسماء مثل يوسف Yusuf ويعقوب Yacqub فقد ذكرت بصيغتها العربية، سواء كانت تخص المسلمين أم اليهود، إذا كانت المصادر هي نصوص عربية أو يهودية ـ عربية. ومع ذلك يوجد بعض الشذوذ بالنسبة للأسماء المعروفة جيداً مثل موسى بن ميمون Moses b. Maimon أو ميمونيد Maimonides أو بنجامين Benjamin صاحب تدلا Tudela. وعند استعمال اسم النسبة nisba (وهو الجزء اللغوي الذي يدل على أصل بلد الشخص مثل أندلسي Ansalusi بغدادي، ألخ)، ويكتب دون الحرف النهائي i (أي Andalusi) ما لم يذكر الاسم بالكامل.

وباستثناء أسماء الأماكن الأندلس al - Andalus والمهدية al - Mahdiyya فقد أهمل المدخل al - (اداة التعريف) وبذلك فإن الإدريسي al - Idrisi تصبح إدريسي Idrisi وحسب، والمِقَّرِيّ تصبح مِقَّري والرازي تصبح رازي وهكذا. واحتفظنا من جهة أخرى بأداة التعريف حيث تلفظ، عندما تظهر في وسط الاسم (مثل عبد الرحمن Abd al - Rahman، وليس Abd ar-Rahman).

ويمثل استعمال أو إهمال أداة التعريف مشكلة في تركيب الاسماء مثل Almoravid (وهي صيغة من المرابط al - Murabit) وAlmohad (الموحد al - Muwahid) حيث ادغمت اداة التعريف مع الاسم في صيغة الاسم الانجليزية. ومن الناحية التقنية يُعد اسهاباً الرجوع إلى تعبير Almoravids أو Almohads ولكن من الناحية العملية يأتي وقع هذه الأسماء على الناطق بالانجليزية شاذاً دون أداة التعريف.

ومن جهة أخرى، هناك نقطة دقيقة، وهي أن بعض التعابير في العربية مثل دار الإسلام dār al - Islām أو شرق الأندلس sharq al - Andalus فقد كَتَبْتُها: دار الإسلام وشرق الأندلس.

وقد اخترت نظام التأريخ المسيحي لأسباب دلالية ولإلفته، ولكن ذكرت التأريخ الإسلامي في حالات قليلة بقصد الإشارة إلى استشهاد من نص عربي.